



الشعر التشادى فى مرحلة الانتباه

د . عبد الله حمدنا الله عبد الله

بعد أن بلغت مرحلة يقظة الشعر التشادى غايتها فى شعر الشيخ عبد الحق السنوسى ، عاد الشعر التشادى إلى الانحطاط بعد مذبحة الككب فى أبشى عام (1917م) ، حيث ضعف الشعر، بل يكاد يختفى، بحيث لم تعد له الإنماذج قليلة فى حينها ، فالعلماء - الذين هم الشعراء فى ذات الوقت - إما قتلوا أمثال الشيخ عبد الحق السنوسى ، أو هاجروا إلى السودان فراراً مما أصاب أمثالهم . وفى السودان تكونت حلقات علمية من هؤلاء العلماء ، أمثال الشيخ عبد الرحيم السنوسى فى الجينيه ، والشيخ عبد الباقي فى الأبيض ، والشيخ كرسى فى النهود ، والعلماء الذين بقوا فى أبشى صمتوا عن قول الشعر ، وإذ نظم أحدهم شعراً لا يظهره إلا بعد سنوات من المذبحة حين تبدلت الأحوال شيئاً ما ، وأطمأن الشعراء بعد خوف .

استمرت فترة ضعف الشعر العربى وانحطاطه إلى نهاية الثلاثينات من القرن الماضى ، حيث بدأ الشعر العربى يعود مرة ثانية ، ويجد مكانه بين المتلقين ، وظهر شعراء ينظمون بصورة لا بأس بها ، وأشهر أولئك الشعراء الشيوخ أحمد طيبك ، ومحمد عليش عووضه ، واحمد البرعى ، واحمد عبد الله بركه وآدم محمد الامين ((دين كله)) وغيرهم .

وأسمينا هذه المرحلة مرحلة الانتباه ، لأنها جاءت بعد انحطاط أعقب يقظه ، وفى هذا الانحطاط لم يضعف الشعر وحده ، بل ضعفت الحركة العلمية كلها ، وانصرف الناس عنها ظاهراً بعد الحرب الشرسة من الفرنسيين على الثقافة العربية الإسلامية ، وبدأ كأن تلك الثقافة فى طريقها إلى موات ، ووثيداً بدأ الناس ينتبهون إلى إن تلك الثقافة قصة كيانهم الروحى والحضارى ، وأن الفرنسية وافدة عارضة يمكنها أن تجاور العربية لكنها لن تحل مكانها ، ومع تلك الانتباه عادت الحركة العلمية على استحياء ، ثم أخذت تنمو ، ومع عودة الحركة العلمية عاد الشعر ليتطور أيضاً ، ومن ثم أسمينا هذه المرحلة بمرحلة الانتباه . ولكى نلم بأطراف مرحلة الانتباه ، يلزمنا أن نعطى أولاً نبذة عن أهم شعراء هذه المرحلة ، وأغراض الشعر ، ثم نتحدث عن الخصائص الفنية التى تميز بها .

أهم الشعراء :



أهم شعراء هذه الفترة حسب الترتيب الزمني هم :

1- أحمد طيبك :

من خلال السيرة التي كتبها ابنه الأكبر زين العابدين أحمد ، فإن اسمه أحمد بن عبد الكريم بن عبد الله السيوطي المكنى بأبي محمد ، الملقب بطيبك ، ولد بمنطقة أم حجر بمحافظة البطحاء عام 1320 هـ الموافق 1903م ، وبعد أن حفظ القرآن الكريم ، وتلقى بعض مبادئ العلوم الإسلامية على يد أبيه ، ذهب الى منطقة البلالة التي تقع على بحيرة الفتري ، ومكث بها عشر سنوات ، ثم ذهب الى منطقة منقو حاضرة محافظة قيرا ، ومكث بها عامين تلقى فيها على أشرف علماء المنطقة ، ثم عاد في سنة 1936م وتولى القضاء الشرعي ، ومكث فيه الى أن أحيل على المعاش سنة 1967م ، حيث مكث يدرس العلوم الشرعية والعربية في منزله الى أن توفي عام 1977م .

ترك الشيخ أحمد طيبك عدداً من المؤلفات بين مفقود ومخطوط ، وتحفظ أسرته بمخطوطاته في شتى أنواع العلوم والفنون ، حيث ألف في العلوم الشرعية والعربية والفلك ، كما شرح بعض المؤلفات لبعض علماء السلف مثل ابن أبي جمرة والمرزوقي .

كان أحمد طيبك شاعراً ، لكن يبدو أن شعره ضاع ضمن ماضع من مخطوطاته ، ولم يصل إلى أيدينا منه غير قليل من منظومات العلوم ، ومن ذلك منظومته في النواصب والجوازم ، وذكر انه ألفها في عشرة من شوال 1373 هـ الموافق يونيو 1952م ، وتحتوي على ثلاثة وأربعين بيتاً ، منها عشرون بيتاً في النواصب ، وثلاثة وعشرون بيتاً في الجوازم ، وحقق هذه المنظومة الباحث التشادى عيسى حسن جمعه ، وله منظومه أخرى في الناسخ والمنسوخ لم أطلع عليها ، ويبدو أن شعره من نوع شعر العلماء (1)

الشيخ محمد عليش عووضة :

محمد عليش اسمه ، وكثيراً ما يكتفى بعليش وحدها دون محمد ، ولد بمدينة أبشى من أسرة ذات أصول سودانية ، وتختلف الروايات حول تاريخ ميلاده اختلافاً بيناً ، فبعض الروايات تقول أنه ولد سنة 1905م ، غير أن عيسى حسن جمعة يذهب الى أنه ولد سنة 1913م (2) ، وليس تحت أيدينا ما نرجح به تاريخاً على تاريخ .

وبعد أن حفظ القرآن الكريم ، ودرس على علماء عصره في أبشى ، سافر الى السودان ومعه أخوه الأكبر الشيخ سليم عووضة الذي أصبح عالماً أيضاً ، والى علمهما يشير الشاعر آدم محمد الامين (دين كله) حيث يقول :

اذكر عليشاً والسليم البشرى * * * فما وجدت مثلهم ياعمري (3)

وفي السودان التحق بمعهد ام درمان العلمي حيث حصل على الشهادة الأهلية سنة 1938م ، وبعدها سافر الى الأزهر الشريف حيث تحصل على الشهادة العالمية من كلية الشريعة عام 1943م ، ثم عاد الى أبشى وأسس معهد أم سويقو في منتصف الأربعينات ، واستطاع من خلال هذا المعهد أن يبث



حركة النهضة ، وأن يعيد للعربية سيرتها ، وأن يخرج خيرة العلماء الذين حملوا نور العلم من بعده ، وأن يبث روحاً ثورية جعلت تلامذته فيما بعد من أوائل القائمين على جبهة التحرير الوطنية التشادية (فرولينا) .

أغضب الفرنسيين ما كان يقوم به من نشاط علمي ثوري ، فعملوا على نفيه من تشاد في أوائل الخمسينات ، ف جاء الى السودان أرض أجداده حيث عمل معلماً في الشئون الدينية ، وتقل في عدد من المعاهد العلمية في مدن السودان المختلفة ، واستقر أخيراً في مدينة أم درمان ، وفيها توفي في يوم الثلاثاء 4 ربيع الثاني عام 1395 هـ الموافق 4 أبريل 1975 م .

ترك الشيخ عlish عدداً من المؤلفات العلمية ، منها كتاب المنحة الأزهرية في فقه المالكية ، والأسلوب الجديد في النحو المفيد ، والموجز في التوحيد ، وغيرها .

كان شاعراً ، ويبدو أن أكثر شعره قد ضاع ، وليس تحت أيدينا سوى عدد قليل من قصائده ، ومن ذلك قصيدته بمناسبة افتتاح العام الدراسي بالمعهد العلمي في أم سويقو في أبشي عام 1947م ، وهي قصيدة تبتدئ بمثل ما يبتدئ الجاهليون من الوقوف بديار الأحبة والاطالة في ذلك الوقوف ، حيث يقول :

صاح عرج على رياض الخزامى * * * قف رويداً وقل بشر سلاماً
واسأل الوافدين ركب التهاني * * * هل أنا خوا بدار سلمى الهياما

ويثنى بالحديث عن الخمر ، ولكنه خمر صوفي قبل أن يتخلص الى غرضه ، حيث قال :

يا أنيس الفؤاد يانور عقلي * * * ياعديم المثل فيك المراما
شعشع الكأس واسقنيها دهاقا * * * لا تمتها وفض منها الختاما
مسكها فاح زاكياً في نواحي * * * شهر شوال عطر الكون عاما

ويحث الناس على الوقوف مع المعهد العلمي في أم سويقو بعد أن يبين فائدته ومكانته .

ورغم أن القصيدة من شعر العلماء مع نفس صوفي ، وأنها من شعر المناسبات ، ويكثر فيها الأسلوب الخطابي والتقريبي واستعمال الأسلوب الإنشائي من أمر ونداء ، إلا أن القصيدة مع ذلك فيها روح جديدة في الشعر التشادي ، ويبدو ذلك في استعمال بعض المفردات والتعابير الجديدة التي استفادها الشيخ عlish من وجوده في السودان ومصر ، حيث تخلص الشعر عن تقاليد القديمة في عصر ضعفه وانحطاطه وأصبح أكثر نضاره ، وفي القصيدة مع ذلك خروج عن البحور الشائعة حينئذٍ في أبشي والتي قلما تتجاوز الطويل والبسيط والكامل (4) .

الشيخ أحمد البرعى :

اسمه احمد البرعى بن محمد بن عبد الله ، ولد عام 1914م وقيل 1911 م في ضواحي أبوقدام التابعة لأبشي ، نشأ في قريته وحفظ القرآن وهو صغير ، وتلقى بعض العلوم الدينية والعربية ، ثم هاجر الى السودان وتلقى فيه أيضاً العلوم العربية والإسلامية ، ومكث فيه مدة ليست بالقصيرة ، وعاد الى تشاد



مشتغلاً بالعلم ونشره ، ومازال حياً حين أملت هذه المذكرة على طلابي في الجامعات التشادية ، في آخر التسعينات، وأثناء إعادة كتابة هذا البحث اتصلت بالشاعر والسياسي التشادي المعروف الشيخ محمد جرمه خاطر وعرفت ان الشيخ أحمد البرعي مازال حياً يرزق الى زمان الناس هذا في ديسمبر 2006م (5) للشيخ أحمد البرعي عدد من القصائد منها قصيدة من سبعين بيتاً ، عنوانها (بهجة المشتاق في التوسل باسماء الخلاق) ، ومطلعها :

بدأت بحمد الله حسبي وذخري * * * وأثنى بحمد الله مولى البرية

وقصيدة تتكون من اثنين وسبعين بيتاً ، وعنوانها (سيف النصر في كل عصر) ، وقصيدة من ستة وثلاثين بيتاً ، وعنوانها (نخلة الأبرار في قمع الفجار) ومطلعها :

شرعنا ببسم الله في اول الذكر * * * وبعد فحمد الله في العسر واليسر

وله غير ذلك من القصائد في التوسل والدعاء والاستغاثة والتوحيد ونظم العلوم ، مثل منظومته في النحو التي أسماها سرية الطلاب لتعليم الأحباب في النحو والإعراب ، ومطلعها :

الحمد لله رفيع المنصب * * * ثم الصلاة للنبي العربي

فدونكم وجيزة في النحو * * * يرجو بها كل مبتدئ في النحو

(هكذا في المخطوطة التي تحت يدي)

كما له عدد من القصائد في تشطير بعض القصائد الدينية والصوفية ، وربما كانت بعض قصائده منحوه مثل قصيدته الجلجولية التي تتكون من أربعة وستين بيتاً ويشك في نسبتها اليه (6) ويبدو أن الشك في مثل هذا الشعر وأشباهه يعود إلى أن بعض قصائد الشعر التشادي تنسب إلى أكثر من شاعر ، وربما كانت هذه القصيدة من تلك القصائد ، ويعود هذا الالتباس إلى ضعف التدوين والمشافهة .

الشيخ أحمد عبد الله بركة :

ولد في مدينة أبشى ، وليس تحت أيدينا تاريخ ميلاده ، قرأ القرآن على والده ، وتلقى العلم على عدد من علماء أبشى ومن بينهم الشيخ سليم عووضه ، ثم عمل معلماً في المدارس العربية والفرنسية ، وتوفي عام 2002م بعد أن ترك ذكراً حسناً ، وترك عدداً من تلاميذه في العلوم الدينية والعربية .

كان شاعراً محسناً ، وترك عدداً من القصائد تدرج تحت الشعر الديني ، وشعر المناسبات ، وتحت أيدينا قصيدته التي القاها في مناسبة تنصيب السلطان ابراهيم محمد عراضه سلطاناً في دار ودای رحمة الله، وفي القصيدة رجعة لماضى أبشى حيث عصر القوة ، مثلما كان يفعل الشعراء المحافظون في شعر الرجعة في أوائل القرن العشرين ، ويرى في أبشى تاريخاً من العلم والورع والتصوف ، وما كان عليه العلماء من أمانة واستقامه ، فيقول :

دم الصحابة معجون بتربتها * * * قد خلدها على الدنيا الأسانيد

ولا ينسى أن يوصي القائمين بأمر أبشى بالأمانة التي القيت عليهم ، وأن يرعوا الماضي في الحاضر حيث يقول :



أمانة الشعب قد شيدت بعاتقكم * * * فما لغيركم تلقى المقاليد
سيروا ولا تهنوا فالشعب يرقبكم * * * وجاهدو ولواء العدل معقود
يا دار أنت على التقوى مؤسسة * * * مبناك بالطهر مرصوص ومنضود
يادار أحمدت أعمال البلاد ففى * * * أحشائك اليوم أشبال صناديد (7)

موضوعات الشعر :

تاريخ الشعر التشادى قبل العصر الحديث ظل منحصرًا فى الشعر الدينى الصوفى ، بل ما يزال هذا الاتجاه الدينى الصوفى غالباً فى الشعر التشادى الحديث ، صحيح أن بعض الشعراء كانت لهم مشاركاتهم فى الحياة من حولهم مثل بعض قصائد الشيخ عبد الحق السنوسى ، ورتاء الشيخ الرماسى لشهداء الككب ، لكن الصحيح أيضاً أن هذا الشعر صيغ على نمط شعر العلماء ، ولذلك جاءت موضوعات الشعر تبعاً لموضوعات الشعر الدينى والصوفى .

أما الشعر فى المرحلة التى نتحدث عنها فلا يختلف كثيراً عن سابقه من حيث الموضوعات، بالرغم من مشاركته فى المناسبات من حوله ، إذ ظل العلماء هم الشعراء ، وظل الشعر الدينى الصوفى غالباً ، ولم يصب الموضوعات ما أصاب الصياغة الفنية من تطور بفضل تطور الحركة العلمية ذاتها، خاصة بعد أن تولى السلطان محمد عراضة سلطنة دار وداى سنة 1935م ، وتشجيعه الطلاب على الهجرة لتلقى العلم ، وأدت هذه الهجرة الى تطور الحركة العلمية فى وداى نفسها حيث استعادت أبشى مكانتها العلمية التى كانت عليها قبل عصر الانحطاط ، بفضل الروح التى بثها الشيخ محمد عليش عووضه فى معهد أم سويقو .

وإذا بحثنا عن موضوعات الشعر فى هذا العصر بمستجداته نستطيع أن نرصدها من خلال الشعر الدينى الصوفى ، وأول ما نلاحظه أنه لم يصل إلينا شعر كاف من هذه المرحلة ، فمعظم الشعراء - باستثناء الشيخ أحمد البرعى - لم تصل منهم غير قصائد قليلة ، أو منظومات فى العلوم ، وبعضهم لم يصل إلينا من شعرهم شئ ، لكن وردت أسماؤهم من ضمن شعراء هذه الفترة ، ويبدو ان القهر الذى أعقب الككب ما يزال يفعل فعله ، بالرغم من تجاوز فترة الانحطاط ، ويبدو أيضاً أن الوظيفة التى نالها عدد من العلماء الشعراء لم تتح لهم الحرية الكافية للانطلاق ، لذلك جاء المحصول الشعرى قليلاً لا يكاد يفى بالغرض .

قلة الشعر كان لها أثرها فى قلة موضوعاته ، أو فى قلة النماذج فى كل غرض ، لكن لانسى أن أهمية هذه المرحلة تأتى من كونها مرحلة انتباه بعد انحطاط ، وأنها تمهيد لآبد منه لانطلاق الشعر التشادى فى العصر الحديث .

ومن خلال ما وصل إلينا من شعر نستطيع أن نرصد موضوعاته وفقاً لمايلي :

1- الشعر الدينى الصوفى :

ما يزال الشعر الدينى الصوفى سائداً فى الشعر التشادى ، ومن خلاله تجى بقية الأغراض الأخرى من فخر ومدح ورتاء وغزل ، وقلما نجد غرضاً مستقلاً عن الشعر الدينى الصوفى ، وينحصر حديثاً هنا عن الشعر الدينى الخالص من توسل ودعاء واستغاثة ونحو ذلك من الموضوعات .



ولهذا النوع من الشعر فى دار وداى أثر فى تزويد النفس بما يعينها على الرياضة الروحية من خلال إنشاده فى حلقات المديح والذكر ، ومن هنا سمي الشاعر مادحاً ، ويكاد الشعر التشادى فى كل مر الحة يكون مدداً حاملاً للتعاليم الإسلامية ، ومن خلاله يستمد الإنسان ثقافته ، ويهذب نفسه ، ويحافظ على هويته ، ومن ثم جاء الشعر الدينى الصوفى فى أضربه المختلفة مليباً لتلك الاشواق والنوازع .
واذا تتبعنا موضوعات الشعر الدينى الصوفى ، فإن التوسل والدعاء تأتى فى مقدمة تلك الموضوعات ، ويكاد يكون أكثر شعر الشيخ أحمد البرعى حول تلك الموضوعات ، وقد يجئ الدعاء والتوسل من خلال قصيدة قائمة بذاتها ، أو فى ثنايا قصيدة تحمل أكثر من غرض ، وأحياناً تكون القصيدة تشطيراً أو تخميساً لقصيدة أخرى مثل قصيدة الشيخ أحمد البرعى المسماه تخميس الجدول ، وتتكون من ثمانية وعشرين بيتاً فى التوسل والدعاء ، ومطلعها :

بدأت ببسم الله مولاي عز وجل * * * تباركت ياذا الملك قهر لمن هزل

وقد يكون التوسل بالله تعالى وأسمائه مثل قصيدته البائية ، أو بالنبي ((ص)) والصحابة مثل قصيدته أسد الغابقى التوسل بالصحابة ، وغالباً ما يأتي التوسل مصحوباً بالدعاء أو الاستغاثة أو بهما معاً ، مثل قوله :

بدأت ببسم الله حسبى وذخرى * * * وأنتى بحمد الله مولى البرية
وصليت الفأ والسلام مردداً * * * على المصطفى المختار خير النبوه
الهى توسلنا ياسمائك التى * * * أمرت بها فى الذكر فى غير سورة
وأمرك أدعونى وقلت استجب لكم * * * فهى قد دعونا بالعدو وعشية
ويعد فإنى قد توسلت راجياً * * * باسماء رب العرش غفر خطيئتى
يناجيك يارحمن ذو الذنب خاضعاً * * * ويطلب منك العفو عن كل زلة

وقد يكون التوسل والدعاء مصحوبين بالدعاء على العدو باهلاكه وتدميره ، وهذه ظاهرة لاحظناها فى شعر العلماء فى تشاد فى مختلف المراحل وأرجعناها الى طبيعة النفس التشادية التى تميل الى أخذ حقها عند الشعور بالظلم حقين ، ولعل الشيخ الطاهر بن التلبى فى عصر نهضة الشعر التشادى أوضح دليل على ذلك خاصة فى قصيدته البندقية الغدارة ومن القصائد المصحوبه بالدعاء لتدمير العدو وا هلاكه قصيدة الشيخ أحمد البرعى نخلة الأبرار وقمع الفجار ، وقصيدة أسد الغابة فى التوسل بالصحابة ، وقد يكون الدعاء بأهلاك أعداء الدين ، وتدمير أعداء ذرية النبى ((ص)) ، وقد يأتي الدعاء بالرضاء عن الشيخ أحمد التجاني .

شعر المناسبات :

عدّ المجددون فى الأدب العربى المعاصر شعر المناسبات من آفات الشعر العربى فى عصر ضعفه وانحطاطه ، لعدم وجود انفعال صادق فى كثير من الأحيان ، مما أحال الشعر نظماً بارداً لاعاطفه فيه ولاشعور .



لكن عند النظر الى شعر المناسبات فى الشعر التشادى نجده موضوعاً جديداً وخروجاً عن نمط الشعر الدينى الصوفى المباشر ، على الرغم من ارتباط المناسبة نفسها بظلال الشعر الدينى الصوفى وتحت ايدينا ثلاث قصائد من شعر المناسبات ، اثنتان منهما بمناسبة افتتاح العام الدراسى فى معهد أم سويقو فى أبشى ، نظمتا فى عام 1947م الموافق 1367هـ ، وهما قصيدة الشيخ محمد عيش عووضة شيخ معهد أم سويقو ، ومطلعها :

صاح عرج على رياض الخزامى * * * قف رويداً وقل ببشر سلاما

والقصيدة الثانية للشيخ أحمد عبد الله بركة فى المناسبة نفسها ، ومطلعها :

أطلّ علينا من سما العلم شادياً * * * يغرد علماً نافعاً ومعظماً

أما القصيدة الثالثة فشاعرها ايضاً الشيخ أحمد عبد الله بركة ، نظمها بمناسبة تنصيب السلطان ابراهيم محمد عراضه سلطاناً على دار وداى ، وليس تحت أيدينا مطلعها ، لكن فى الابيات التى وصلت إلينا من القصيدة يتحدث عن أبشى ، وما تحت ترابها من علماء أقاموا منها مركزاً علمياً للثقافة العربية الإسلامية ، ومسجداً للتقوى وصالح الأعمال ، فيقول :

وأمشى الهويبة فى أحشائها أمم * * * وفى جوانحها أسد محاصيد

دم الصحابة معجون بتربتها * * * قد خلدتها على الدنيا الأسانيد

ولاينسى أن يذكر أهلها بأهلها ، وبأن يرعوا ماضيها الطاهر ، ثم يتحدث عن دار السلطنة التى أسست على التقوى حيث يقول :

أمانة الشعب قد شيدت بعانقكم * * * فما لغيركم تلقى المقاليد

سيروا فلاتهنوا فالشعب يرقبكم * * * وجاهدوا ولواء العدل معقود

يادار أحمدت اعمال البلاد ففى * * * أحشائك اليوم أشبال صنائيد

دار ابن احمد فى أبشى يظللها * * * نصر ألا إن نصر الله معقود

أما القصائد التى قيلت بمناسبة العام الجديد فى معهد أم سويقو فأولها قصيدة الشيخ محمد عيش التى مطلعها :

صاح عرج على رياض الخزامى * * * قف رويداً وقل ببشر سلاما

وهى تبتدئ بداية غزبية وفقاً لتقاليد الشعر الجاهلى ، ثم تنثى بالخمير وفقاً لتقاليد الشعر العباسى ولكنه خمر صوفى ، ثم يتخلص تخلصاً رقيقاً الى موضوعه ، وهو الاحتفال بافتتاح العام الدراسى للمعهد العلمى فى أم سويقو ، فيقول :

يأنيس الفؤاد يانور عقلى * * * ياعديم المثل فيك المراما

شعشع الكأس واسقنيها دهاقا * * * لا تمتها وفض منها الختاما

مسكها فاح زاكياً فى نواحي * * * شهر شوال عطر الكون عاما

ليلة القدر ليلها وضحاها * * * يوم عشرين بعد ست تماماً



ذاك عيد يقام فيه احتفال * * * زاهر مشرق رفيع المقاما
وقديماً حكوا بأن يسعد الظرف * * * بسعد المظروف رب الخياما
كيف لا والذي به يحفل اليوم * * * حرى بأن يلاقى ابتساما
يوم بدء الدروس بالمعهد العلمى * * * وسعد السعود على المقاما

ويتحدث عن المناسبة ، وعن المعهد العلمى وطلابه ، الذين شيّدواالمجد ، وأناروا الدجى ، وأزاحوا
الظلام ، ورفعوا العلم ، وحفظوا الدين ، وللمره الأولى ترد كلمة الجهاد فى فلسطين فى الشعر التشادى ،
حين قرن الرسالة التى يقوم بها طلاب المعهد فى دار صليح (وداى) بأجر من يجاهد فى فلسطين حيث قال
:

أيها الوطنون دار صليح * * * إخوتى سادتى أراكم أماما
يابنى المعهد المؤمل فيكم * * * رفع الله عينكم والآثاما
لكم أجر من يجاهد نصراً * * * بفلسطين هاجنا أو تهاما

والقصيدة وثيقة لبعض تاريخ المعهد العلمى ، والمجهود الذى قام به الشيخ محمد عليش فى دار
وداى ، وهى دالة ايضاً على أن التشاديين تجلوبوا باكراً مع الجهاد فى فلسطين ، وكل ذلك مما أدى فى
النهاية الى ابعاد الشيخ محمد عليش من تشاد ونفيه الى السودان ، الذى أقام فيه ناشراً العلم الى أن أدركته
الوفاة .

أما القصيدة الثانية للشيخ أحمد عبد الله بركة فيفتتحها بتغنى عجزه عن نظم الشعر فى هذه المناسبة
لجلالها ، فيقول :

الى بنات الشعر فالشعر خاننى * * * واى لأخشى اليوم أن أتلعثما
أعيدى لى العهد الرشيدى واطلقى * * * لسانى عسانى اليوم أن أتكلما
وأنشد من فضل العلوم قصيدة * * * وأنظم عقد الدر فرداً وتوأما
وأتلو عليهم آية بعد آية * * * إذا تليت فى قبر ميت تكلما

ويعود الى ماضى أبشى مثلما عاد فى قصيدته فى تنصيب السلطان ابراهيم ، وماكان من علماء
وداى ونشر العلم ، ومحاربة الجهل ، وإقامة الاحكام ، قبل أن يصل إلى غرضه فى أثر المعهد العلمى
الذى ربط الحاضر بالماضى ، وأعاد للعلم وطلابه ماكان للأسلاف من قبل ، ثم يبين مكانه الشيخ فى نفوس
طلابه ، ولعله هنا يشير إلى الشيخ محمد عليش ، حيث اختتم قصيدته بقوله :

وشيخى له روحى وجسمى ودونه * * * فوادى وفيه لايزال متيما

ومهما يكن فقد فتحت هذه القصائد باب شعر المناسبات الذى ولج منه الشعراء فى المرحلة التالية فاتسعت
الموضوعات وتنوعت .

الفخر:



لايميل العلماء عادة الى الفخر ، لأن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً ، وفي بيئة صوفية مثل تشاد يضعف هذا الغرض ، لأن التصوف يربى النفس على التواضع ، وهضم دواعى الفخر ، لكل ذلك نجد غرض الفخر باهتاً ضعيفاً إلا أن يكون فخراً بالإسلام والانتماء إليه ، أو بالرسول والصحابه والأسلاف من العلماء والصالحين .

ومن الشعراء الذين أكثروا من مثل هذا الفخر الشيخ أحمد البرعى الذى يمدح الرسول ((ص))
بمثل قوله :

أحمد الخير والخيار أبوه * * * نال منه مايشتهيهِ ذووه

والشيخ أحمد عبد الله بركة يفتخر بعلماء وداى بأبيات حاول أن يحصى من خلالها فضائلهم التى لاتحصى
حيث قال :

فإن بسماوا فالكون من حسناتهم * * * وإين عبسوا فالكون صار جهنما

وإين نطقوا دكوا القلاع بنطقهم * * * وأوموا الى بنيانها فتهدما

شموس سماء العلم أيان اشرقوا * * * بدور الدياجي حيث كانوا وانجما

وانفرد الشيخ أحمد البرعى بقصيدة يفتخر فيها بنسبه الذى ينتهى الى سيدنا على رضى الله عنه ، فيقول :

نسباً تزف بفخره الأيام * * * وتزهو ابتهاجاً ذكره الأعوام

ويقول أيضاً :

أردت بهم أفلاك أمرى كما ترى * * * بروجاً ولكن كلها مطلع السعد

هم حسن ثم الحسين ونجله * * * على الذى زان العبادة بالزهد

وباقر علم وهو والد جعفر * * * أبو الكاظم القرم الهمام بلاجد

وعلى قلة شعر الفخر فإنه يأتى غالباً فى ثنايا القصائد ، ومن خلال أغراض أخرى ، وقلما تنفرد قصيدة بالفخر .

نظم العلوم :

لنظم العلوم تاريخ فى القصيدة التشادية ، وفى المراحل السابقة وجدنا أكثر من ناظم للعلوم ، من أمثال الشيخ محمد الوالى سليمان الباقر مى الذى نظم فى النحو ، والشيخ عبد الحق السنوسى ، والهدف من المنظومات تعليمى لوقوع تشاد طرفاً فى العالم العربى والإسلامى فكان لايد من النظم لتلقين الطلاب مبادئ العلوم العربية والإسلامية .

ومن منظومات العلوم فى هذه المرحلة منظومة النواصب والجوازم للشيخ أحمد طيبك ، وقد نظمها فى موضوعات بعينها من موضوعات النحو فى العاشر من شوال سنة 1373 هـ -يونيو 1952م ، والمنظومة من ثلاثة وأربعين بيتاً ، منها عشرون فى النواصب ، وثلاثة وعشرون فى الجوازم ، وقد ركز على المسائل النحوية وشواهدا وقد يتعرض للخلافات النحوية بين البصريين والكوفيين وقد يذكر أحياناً بعض أسماء الكتب .



وللشيخ أحمد البرعى منظومة فى النحو تتجه نفس الاتجاه الذى سار عليه الشيخ أحمد طيبك اسماها سرية الطلاب لتعليم الأحباب فى النحو والإعراب ، وبين غرضه من نظمها حين قال :

فدونكم وجيزه فى النحو * * * يرجو بها كل مبتدئ فى النحو
سميتها سرية الطلاب * * * ومسرجه تضى للأحباب
تنير قلب من يحصيها * * * وتبسط البذل لمن يعيها

الخصائص الفنية :

مايزال الشعر التشادى ضعيفاً من كل وجه ، حافلاً بالماخذ الفنية التى كان عليها الشعر العربى فى عصر ضعفه وهزاله قبل أن يبعثه البارودى ويعيده إلى عصر قوته فى العصر العباسى .
ولضعف الشعر التشادى أسباب موضوعية ، منها أن الشعر فى مجمله يندرج تحت شعر العلماء ، وشعر العلماء أضعف من شعر الشعراء الذين يهيمنون فى كل واد .

فالعلماء لطول مداومتهم فى العلوم وأساليبها غلبت عليهم النزعة العقلية الصارمة ، وبدأت هذه النزعة فى أشعارهم التى قلت فيها العاطفة ، وقديماً رد أصحاب البحترى على أصحاب أبى تمام الذين فضلوه على البحترى لأنه شاعر عالم ، رد اصحاب البحترى بأن شعر العلماء دون شعر الشعراء .
ويعود الضعف فى بعض أسبابه الى موقع تشاد فى الطرف من العالم العربى والاسلامى وبعدها عن المراكز العلمية فى المغرب ومصر والحجاز ، ثم ان العربية لم تتأصل فيها كما تأصلت فى تلك المراكز ، أضف الى ذلك أن الثقافة ملوية لم تجد اهتماماً فى عصور قوتها ، وإنما بدأ هذا الإهتمام بعد قيام السلطنات ورعايتها للعلم والعلماء ، وجاء هذا الإهتمام فى مرحلة متأخرة فى عصر ضعف الثقافة العربية الاسلامية فى مراكزها العلمية نفسها .

غير أن ضعف هذا الشعر لايعفينا من تتبع خصائصه الفنية ورصدها ، ولا يفوتنا أن نلاحظ أن الشعر فى هذه الفترة رغم ضعفه قد كان فى بعض قصائده أقرب الى روح الشعر .

الأسلوب وبناء القصيدة :

مايزال الأسلوبان الإنشائى والخبرى سائدين فى القصيدة ، ولانكاد نعثر على التعبير بالصورة ، وإن وجدت فتعتمد على المحفوظ من الصور البلاغية المستهلكة .

فمن مظاهر الأسلوب الإنشائى استعمال فعل الأمر بكثرة ملحوظة ، ففى قصيدة الشيخ أحمد عبد الله بركة نجد الفاظ الأمر مثل - انزل بدار بشة - امش الهويبة - سيروا فلا تهنوا ... الخ
ونجد النداء مع أسلوب التكرار فى مثل قوله : يا دار أنت على التقوى مؤسسة - يا دار أهدت أعمال البلاد .



ونجد ذات الأسلوب من نداء وأمر فى قصيدة الشيخ محمد عليش عووضة من مثل - صاح عرج -
قف رويداً وقل ببشر- أسال الوافدين- يا أنيس الفؤاد- يا عديم المثال- شعشع الكأس- اسقنيها ..الخ غير
أن الأسلوب ارتقى من حيث الألفاظ وبناء الجملة ، فالالفاظ فى مجملها فصيحة ، ولا نكاد نجد الفاظاً عامية
أو غير عربية ، وإن جاءت بعض الالفاظ فى غير معناها لضرورات الوزن مثل قول الشيخ أحمد البرعى :

بدأت بيسم الله حسبى وذخرى * * * واثنى بحمد الله مولى البرية

فالبيت من بحر الطويل ، وعجزه لا يستقيم الابتسكين الناء من كلمة اثنى ، ليتحول معناها من أقول
ثانياً التى تناسب بدأت فى صدر البيت ، الى الثناء والمدح .

ومن الظواهر ما يطرأ من تغيير فى بنية بعض الألفاظ بسبب الضرورات الشعرية ، خاصة فى
قصر الممدود ، مثل قول الشيخ أحمد عبد الله بركة:

أطل علينا من سما العلم شادياً

فقصر لفظ سما بحذف الهمزة ليستقيم الوزن، ومن هذا النوع أيضاً حذف الهمزة من لفظ السماء فى قوله:

ودكوا القلاع الشامخات إلى السما

وفى المنظومات نجد مصطلحات العلوم العربية والإسلامية ، مثل مصطلحات النحو لدى الشيخ
أحمد طيبك والشيخ أحمد البرعى ، الى جانب أسماء الكتب والمذاهب النحوية .

أما الأسلوب فهو فى غالبه مستقيم العبارة ، ويكثر فيه التقديم والتأخير بصورة تؤدى أحياناً الى تعقيد
الأسلوب وركاكته مثل قول الشيخ عليش :

أيها المعهد الرسالة بلغ

فقد قدم المفعول على الفعل الذى يشتمل على ضمير فاعل يعود الى المعهد ، وفصل بينهما
بالمفعول .

والبناء الفنى للقصيدة يسير على نمط البناء الفنى للقصيدة الدينية الصوفية فهو يبتدئ غالباً بحمد
الله والثناء عليه والصلاة على النبى ((ص)) ، ثم ينتقل الى التوسل ، والمناجاة والدعاء وذكر الصحابة وقد
تختم بالصلاة على النبى ((ص)) ، وأحياناً يذكر اسم الشاعر ، كقول الشيخ أحمد البرعى :

أحمد البرعى فاه ذلك ذكرى * * * لالشئ للعالمين وعبرا

والقصيدة بذلك تفتقد الوحدة العضوية ، فهى تحتوى على أكثر من غرض ، ولارابط بين تلك
الأغراض غير الرابط العام الذى هو دينى فى أساسه ، وقلما يحسن الشاعر التخلص من غرض الى غرض
، بل نجده يأتى أحياناً بعبارة وبعد التى تعنى الانتقال من موضوع الى موضوع آخر ، مثل :

وبعد فإنى قد توصلت راجياً * * * باسماء رب العرش غفر خطيئتى

أما فى شعر المناسبات ، فبناء قصيدة الشيخ عليش يبتدئ بداية تقليدية ، حيث يستهلها بالغزل
والوقوف على الأطلال ، ثم ينتقل الى الخمریات ، ليتخلص برفق الى الغرض الذى نظم من أجله القصيدة ،



وهو احتفال المعهد العلمى ، غير أنه ينتقل فى جزئيات الغرض من خلال موضوعات متعددة ، مما يفقدها أيضاً الوحدة العضوية ، وعلى الرغم من قناعتنا بعدم تحقق الوحدة العضوية فى الشعر الغنائى فإن ذلك لايعنى التفكك المخل ببناء القصيدة بحيث تصبح كالرمل المهيل لا رابط بين أجزائها .

غير أن البداية الغزلية والخمرية فى القصيدة ظاهرة قل ورودها فى الشعر التشادى ، بل ربما غابت هذه الظاهرة منذ استشهاد الشيخ عبد الحق السنوسى فى مذبحه الككبب والذى كانت بداياته الغزلية موفقه .

أما قصيدة الشيخ أحمد عبد الله بركة فى المناسبة ذاتها ، فإنه يدخل الى موضوعه دون مقدمات قبل أن يتغنى ذاته ويذكر الماضى وماكان فيه من علم وعلماء قبل أن يعود إلى موضوع المناسبة ، ثم يختتمها بحبه لشيخه ، وهى بذلك تختلف فى بنائها عن قصيدة الشيخ عليش من حيث البداية والخاتمة ، لكنها تتفق معها فى تناول موضوع المناسبة ، وتتفق معها فى تعدد الموضوعات ، وعدم تحقق الوحدة العضوية .

الموسيقى :

التزم الشعر عروض الخليل من حيث الوزن والقافية ، مع ورود بعض الأبيات المختلة عروضياً ، ويبدو أن هذا الاختلال عائد إلى الإنشاد والترنم ، حيث نظم الشعر لاستخدامه فى ليالى الذكر ، وفى مثل هذا النوع من الشعر يتحكم المنشدفى صوته مداً وقصراً لإقامة الوزن ، لكن فى حال قراءته دون إنشاد تظهر العيوب .

وقد يعود الاختلال فى بعض أسبابه إلى رواية الشعر نفسه ، حيث انتقل الشعر عن طريق الرواية إلى أن استقرت تلك الرواية الشفهية من خلال التدوين مما عرضها الى الخلط أو النسيان ، وعرضها إلى العيوب العروضية ، خاصة فى الوزن .

التزمت القصيدة غالباً بوحدة الوزن والقافية ، ولم تخرج عن هذا الإلتزام إلا فى التخميم حيث تعددت القوافى ، وفى حال نظم العلوم حيث يتفق كل بيت فى قافية الصدر والعجز .

وأحياناً نجد الخروج على القافية لا بقصد الخروج لكن لعدم السيطرة على القافية نفسها ، إذ سريعاً ما يعود الشاعر إلى القافية التى خرج عنها ، ففى قصيدة الشيخ أحمد عبد الله بركة الميمية التى مطلعها:

أطل علينا من سما العلم شادياً * * * يغرد علماً نافعاً ومعظماً

نجد هذا البيت ذا القافية الرائية :

موازين قسط للأنام نفوسهم * * * يفجون مسكاً كل وقت وعنبرا

ثم يعود الى القافية الميمية ليخرج منها فى بيت آخر فى قوله :

إلى أن دعا صوت الى العلم ها هنا * * * تراهم سراعاً قد ألبوا المناديا

ومن المآخذ التى تكثر فى الشعر الأقفاء ، وهى ظاهرة لاحظنا كثرتها فى المراحل السابقة ، بل واللاحقه ، ومن ذلك :

شموس سماء العلم أيان أشرقوا * * * بدور الدياجى حيث كانوا وانجما



فالصواب أن أنجماً معطوفة على بدور وكان حقها الرفع ، ويمكن أن تكون الواو إستثنافية ، والجملة معطوفة على ما قبلها ويكون المعنى كان بدور الديقى وكانوا انجما .
ومن هذا أيضاً :

أغاروا عليهم حيث شادوا حصونهم * * * ودكوا القلاع الشامخات الى السما
فالبيت فيه الى جانب ارتكاب الضرورة الشعرية حيث قصر الممدود ، فيه إقواء ، إذ الصواب الى السماء
بالكسر لاقتران الممنوع من الصرف بأل ، وفى ذلك يقول ابن مالك :
وجر بالفتحه ما لا ينصرف * * * مالم يصف أويك بعد ال ردف .

المعاني والأخيلة :

الظاهرة العامة افتقار هذا الشعر إلى المعاني الشعرية المبتكرة والعميقة ، فالمعاني فى مجملها مطروقة فى الشعر العربى فقدت بريقها من كثرة تداولها ، وهى متأثرة بالمعاني الدينية فى القرآن الكريم والحديث النبوى والتصوف ، وبالشعر العربى ، ولانكاد نجد أثراً للبيئة التشادية من خلال الشعر .

وقد يصل التأثير إلى حد اقتباس المعنى مثل قول الشيخ محمد عليش :

وقديماً حكوا بأن يسعد الظرف * * * بسعد المظروف رب الخياما

ومن مظاهر التأثير بالقرآن قول الشيخ أحمد عبد الله بركة :

واتلو عليهم آية بعد آية * * * إذا تليت فى قبر ميت تكلمما

وقول الشيخ أحمد البرعى :

رमित بالحجر والقافات والمسد * * * ياسيد الكون يا ذخرى وباسندى

والأخيلة فى هذا الشعر قليلة وضعيفة ، وهى على قلتها تعتمد على التشبيه المطروق ، ولانكاد نجد تشبيهات مبتكرة ، بل تقل الصور البلاغية الأخرى من استعارة ومجاز ، فالتعبير الشعرى يعتمد على الأسلوب الخبرى والأسلوب الإنشائى لكن لانعدم بعض الصور مثل تجسيم العلم فى صدر البيت :

شموس سماء العلم أيان أشرقوا

فقد جعل للعلم سماء وشموس على سبيل الاستعارة ، وهؤلاء الشموس هم العلماء المتبحرون ، ويمكن أن نستخرج منه تشبيه العلماء بالشموس على سبيل التشبيه .

ومن هذا أيضاً :

فإن بسموا فالكون من حسناتهم * * * وإين عيسوا فالكون صار جهنما

وإين نطقوا دكوا القلاع بنطقهم * * * وأوموا إلى بنيانها فتهدما

ومهما يكن من ضعف فإن مرحلة الانتباه كانت مرحلة لازمة لانطلاق الشعر فى العصر الحديث ، حيث كثر الشعر والشعراء ، وارتفع من حيث المستوى الفنى ، وأصبح يحاول جاهداً اللحاق بالشعر العربى فى مراكزه القوية .



الهوامش :

- 1- انظر ترجمة الشيخ أحمد طيبك فى : عبد الله حمدنا الله (دكتور) مذكرة فى الأدب التشادى ، أمليت على طلاب الفرقة الرابعة جامعة الملك فيصل والفرقة الثالثة فى جامعة انجمينا وانظر أيضاً : عيسى حسن جمعة ، منظومة النواصب والجوازم للشيخ أحمد طيبك ، دراسة وتحقيق ، بحث منسوخ على الآلة الكاتبة لنيل درجة الدراسات المعمقة للعام الجامعى 1999/98م تحت اشراف د.عبد الله حمدنا الله وأ. عبد المعبود ابراهيم شرارة ، جامعة الملك فيصل بانجمينا ، من ص 49 الى ص68 .
- 2- نفسه ، ص 55 .
- 3- روى لى البيت الشاعر نفسه عند لقائى به فى انجمينا فى منزل ابنه محمد طاهر المستشار فى وزارة الخارجية التشادية ، وكان فى طريقه الى عمره فى مايو عام 2000م .
- 4- انظر ترجمة الشيخ محمد عيش فى : عبد الله حمدنا الله (دكتور) مذكرة فى الأدب التشادى ، والقصيدة منسوخه بخط اليد ولدى الباحث صورة منها .



- 5- كان اتصالي بالشيخ محمد جرمة خاطر عن طريق الهاتف أثناء إقامته فى الخرطوم ، وتم الاتصال يوم الثلاثاء 2006/12/26م الساعة التاسعة مساء .
- 6- انظر : عادل موسى عبد الرحيم ، أحمد البرعى حياته وأدبه ، بحث لنيل درجة التخرج ، جامعة الملك فيصل تشاد / اشراف د. عبد الله حمدنا الله ، العام الدراسى 1996/95م وانظر أيضاً : عبد الله حمدنا الله (دكتور) مذكرة فى الأدب التشادى .
- 7- أنظر ، عبد الله حمدنا الله (دكتور) مذكرة فى الأدب التشادى ، والقصيدة منسوخة بخط يد الشاعر ولدى الباحث نسخة منها .